التاريخ
والآثار
المصرية
والإسلامية

الأسس التي اعتمد عليها الأمويون لإثبات حقهم في الخلافة

د. زريف مرزوق المعايطة

أستاذ مشارك بقسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة مؤتة

الأسس التي اعتمد عليها الأمويون لإثبات حقهم في الخلافة

لقد اجتهد الخلفاء الأمويون خلال فترة حكمهم في وضع مبادئ وأسس يستندون إليها في خلافتهم ويحاولون من خلالها إقناع الناس بأحقيتهم بالخلافة، وساهم الخلفاء الأمويون جميعا في هذا المجال، وكان رائدهم في ذلك معاوية بن أبي سفيان؛ الذي استطاع بحكمته ودهائه وحلمه، أن يثبت أنه رجل دولة متميّز، وأن يوطد أركان الخلافة الأموية، وذلك بالحفاظ على جوهر سياسته القائمة على دعامتين رئيسيتين هما:

أولاً: التمسّك بالخلافة على أساس أنها ملك لبني أميّة. وقد عبّر عن ذلك بشكل واضح في قوله: "إني لا أحول بين الناس وألسنتهم، ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا"[١]. والواقع أنّ بوادر تطلع الأمويين إلى التمسّك بالخلافة تعود إلى أواخر خلافة عثمان بن عفان. إذ يروي الواقدي أنّ مروان بن الحكم الأموي كاتب عثمان خاطب محاصريه قائلاً: "ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب؟ شاهت الوجوه، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، اخرجوا عنا. أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم". الأمر الذي أغضب المحاصرين، فشددوا الحصار على عثمان حتى قتلوه[٢]. كما بادر معاوية في أواخر خلافته إلى العهد بالخلافة إلى ابنه يزيد من بعده، لترسيخ وراثة الخلافة في بني أميّة.

ثانياً: التأكيد على سيادة قريش على القبائل العربية، وعلى أنّ بني أميّة هم خير من يمثل هذه السيادة. وقال معاوية في ذلك: "إنّ الله رعى قريشا قبل الإسلام حين جعلهم أهل الحرم، وصدّ عنهم كل كيد أرادهم به الناس، وخصّ قريشا بالإيلاف، وذلك كله تمهيدا لبعثه خير خلقه. ثمّ ارتضى له أصحابا فكان خيارهم من قريش، ثمّ في هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، فلا يصح ذلك إلا عليهم"[٣]. وكان يقول: "أنا ابن هند أعلم بقريش من قريش"[٤].

وذكر المدائني أنّ قرشيا أغلظ لمعاوية، ودعا الله أن يريح الناس منه. فقال له معاوية: "ويحك إلى من؟! إلى بني زهرة؟ فما عندهم نصر ولا فضل، أم إلى

بني مخزوم؟ فوالله لو نالوا من الأمر شيئاً ما كلموكم كبراً، ثم إلى بني هاشم؟ فوالله لو نالوها لاستأثروا عليكم. وإنا على ما فينا لنعطي السائل ونجود بالنائل، ولا تزال العرب غلب الرقاب ما رأونا على المنابر"[٥].

ومنذ تولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة أصبح مبدأ الجبر فلسفة الأمويين، يحاولون من خلاله تبرير خلافتهم. فأعلنوا للناس أنّ الله سبحانه وتعالى لختارهم للخلافة، فورد عن معاوية قوله: "لو لم يرني ربي أهلاً لهذا الأمر ما تركني وإيّاه، ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيره"[٦].

وحثّ الأحنف بن قيس التميمي معاوية بن أبي سفيان على التريُّث في بيعة ابنه يزيد، فردّ عليه معاوية قائلاً: "يا أبا بحر فإنّ خيرة الله تجدي، وقضاء الله يجري، وأحكام الله تنفذ، لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، وإنّ يزيد قد بلوناه، ولم نجد في قريش فتى هو أجدر بأن يجتمع عليه منه"[٧].

وبعد اختيار مروان بن الحكم خليفة في مؤتمر الجابية عام ٦٥هـ، خاطبه حسّان ابن مالك بن بحدل قائلاً: "يا مروان والله ما كلهم يرضى بك"، فأجابه مروان: "إن يرد الله أن يعطينها، لا يمنعني إيّاها أحد من خلقه، فقال له حسّان صدقت"[٨].

وعندما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق، أمر عبد الملك برأس عمرو بن سعيد أن يطرح من أعلى القصر، فطرح إلى أتباعه وطرحت معه الدراهم والدنانير، ثمّ أعلن فيهم قائلاً: "إنّ أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ"[٩].

وعندما أراد هشام بن عبد الملك خلع الوليد بن يزيد عن ولاية العهد، كتب إليه الوليد: "لقد كتب إليّ من العهد، وكتب إليّ من العمر وسبب لي من الرزق، ما لا يقدر أحد دونه تبارك وتعالى على قطعه عني دون موته ولا صرفه عن مواقفه المحتومة، فقدر الله يجري على ما قدره، بما أحبّ الناس وكرهوا، لا تعجيل لعاجله، والناس بعد ذلك يحتسبون الأوزار، ويعترمون الآثام على أنفسهم

من الله بما يستوجبون العقوبة عليهم، فردّ عليه هشام قائلاً: "ولمّا ما ذكرت ممّا سبّبه الله لك، فإنّ الله قد ابتدأ أمير المؤمنين بذلك واصطفاه له، والله بالغ أمره، ولقد أصبح أمير المؤمنين وهو على يقين من رأيه، إلا أنه لا يملك لنفسه ممّا أعطاه الله من كرامته ضراً ولا نفعاً، وأنّ الله أرأف بعباده وأرحم من يولي أمرهم غير من يرتضيه لهم، وأنّ أمير المؤمنين مع حسن ظنه بربه لعلى أحسن الرجاء لأن يوليه بسبب ذلك لمن هو أهله في الرضا به له به ولهم"[١٠].

ووردت أيضاً روايات تفيد أنّ مبدأ الجبر قد ظهر في العصر الراشدي، فعندما طلب الثائرون في المدينة من عثمان أن يعتزل الخلافة ردّ عليهم قائلاً: "ما كنت لأنزع قميصاً قمصنيه الله"[١١]، وعن يزيد بن الأسود بن قيس بن مالك النخعي، قال: "قلت لعائشة: "ألا تعجبين لرجلٍ من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله (ص) في الخلافة؟ فقالت: وما تعجب من ذلك؟ وهو سلطان الله يؤتيه البرّ والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة"[١٢].

وقد اعتمد أهل مبدأ الجبر على بعض الآيات القرآنية التي تؤيد آراءهم، قال تعالى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله، إنّ الله كان عليماً حكيماً، يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ له عذاباً أليماً﴾[١٣]. وقال تعالى: ﴿إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾[١٤].

ووردت أيضاً أحاديث نبويّة تؤكد مبدأ الجبر الذي نادى به الخلفاء الأمويون، قال رسول الله (ص): "إنّ الله عزّ وجلّ لو عذّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل جبل أحد ذهباً أنفقته في سبيل الله ما قبله الله منك، حتى تؤمن بالقدر وتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإن متّ على غير هذا دخلت النار"[١٥].

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: "التقى موسى وآدم عليهما السلام، فقال موسى لآدم: "أنت أبو الناس الذي أغويتهم وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: أوتلومني على عمل قد كتبه الله عليّ أن أعمله، وقبل أن أخلق فحجّ آدم وموسى"(١٦). وقال رسول الله (ص): "يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة أو بخمسين ليلة، فيقول: أي رب ذكر أم أنثى، فيقول الله ويكتب الملك، فيقول: أي رب شقي أم سعيد، قال: فيقول الله، ويكتب الملك رزقه وعمله وأجله ثمّ يطوي الصحيفة، فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص"(١٧). وهكذا فإنّ الأمويين لم يستخدموا فكراً غريباً عن المسلمين بل فكراً معروفاً عندهم، بل أنّ الإيمان بالقدر خيره وشرّه، هو أحد عناصر الإيمان عند المسلمين(١٨).

واستخدم الأمويون الشعراء وسيلة إعلامية لإعلان ونشر نظريتهم في الجبر، بهدف إقناع أكبر عدد ممكن من الناس بالجبر، فأشاع الشعراء بين الناس أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي اختار بني أميّة للخلافة، ولا مجال لتغيير إرادة الله (١٩).

لذا ظهر مذهب الجبر في الخلافة في الشعر الأموي، وتمثل الشعراء الموالون للأمويين نظريتهم في الخلافة، واتخذوه أساساً لتصويب حقهم في الملك والاحتجاج له والدفاع عنه. والشواهد على ذلك كثيرة وبعضها يكرّر بعضاً، فهم دائماً يُبدئون ويُعيدون في معنى واحد، وهو أنّ الله قلّد الأمويين الخلافة، وأنهم ظلّ الله في الأرض وسلطانه على الناس، فمنها قول عبد الله بن همام السلولي ليزيد بن معاوية مُقرّراً أنّ الله اختاره لولاية أمر المسلمين(٢٠):

أصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة واشكر عطاء الذي بالملك أصفاكا

وقول جرير لعبد الملك مؤكداً أنّ الله حباه الخلافة لأنه أحقّ بها وأقوى عليها(٢١):

الله طوقك الخلافة والهدى والله ليس لما قضى تبديل

وقال الفرزدق يمدح الوليد بن عبد الملك[٢٢]:

أشاروا بها في الأمر غيرك منهم ولاكها ذو العرش نحلا مّن النحل

ومنها قول جرير لعمر بن عبد العزيز منوّها بأنّ الله فوّض إليه الخلافة[٢٣]:

إنّ الذي بعث النبي محمـــدا جعل الخلافة في الإمام العـادل

وقوله له مرتدا أنّ الله خوّله الخلافة[٢٤]:

نال الخلافة إذ كانت له قـدرا كما أتى ربّه موسى على قــدر

ومنها قول جرير ليزيد بن عبد الملك مصرّحا بأنّ الله وهبه الخلافة وآثره بها، لورعه وتقواه، وبُعد همته وحُسن تدبيره[٢٥]:

أمّا يزيد فإنّ الله فهمـــــه حكما وأعطاه ملكا واضح النور

يكفي الخليفة أنّ الله فضّلـه عزم وثيق وعقد غير تغريـــــر

والأبيات السابقة أمثلة حيّة صادقة لها قيمة فائقة؛ لأنها تصوّر نظرية الأمويين في الخلافة، وتاريخ نشرهم لها، ومبلغ إلحاحهم عليها، ومقدار اعتقاد أنصارهم بها، الأمر الذي يوافق الأخبار التي رويت في ذلك ويؤيّدها تأييدا شديدا، وممّا يزيد عليها زيادة كبيرة، تستدرك ما أخلت به، وتوضّحه توضيحا دقيقا.

فهي تدلّ على أنّ الأمويين أظهروا نظرية الجبر في الخلافة في عهد معاوية ابن أبي سفيان، وأنّ المروانيين منهم تمسكوا بها، واعتمدوا عليها لإثبات حقهم في المُلك، وتفسير استئثارهم به، فقد كانوا يزعمون أنّ الله اختارهم للخلافة، وخصّهم بها؛ لأنهم أحسن المسلمين صلاحا وفضلا، وأكثرهم تقى وورعا وأدقهم علما وحكما وأصدقهم جهادا ونضالا، وأشهرهم إنصافا وعدلا.

وعلى أساس القول بأنّ الله سبحانه وتعالى اختار الأمويين للخلافة، فإنّهم حاولوا عن طريق شعرائهم إكساب أنفسهم صفات دينية، وذلك بتعظيم مكانة الخلفاء وتشبيههم بالأنبياء في صفاتهم وأخلاقهم، ولذلك فمكانهم الجنّة بالقرب من الأنبياء[٢٦].

وقال الفرزدق يمدح هشام بن عبد الملك بمثل تلك محاولا إكسابه صفات الأنبياء والرُسل(٢٧):

يقـــول ذوو العلم الذين تكلمـــوا　　به عن رسول الله من كل عالـــم
ولو أرسل الروح الأمين إلى امرئ　　سوى الأنبياء المصطفين الأكارم
إذا لاتت كفي هشام رسالــــــة　　من الله فيها منزلات العواصـــم

ومن لجل إكساب هذه الصفات الدينية الصدق، حاول الشعراء إظهار الأمويين بأنهم شديدو الورع والتقوى، فقال نابغة بني شيبان يمدح يزيد بن عبد الملك(٢٨):

يقطع الليل آهة وانتحابـــا　　وابتهالا لله أي ابتهـــــال
تارة راكعا وطورا سجـودا　　ذا دموع تنهل أي انهـــلال
عادل مقسط وميزان حـــق　　لم يحف في قضائه للوالـــي

وادّعى الأمويون أنّ بقاء الخلافة يعني بقاء الإسلام، والاستمرار في تأدية الشعائر الإسلامية فلولا الخلفاء لم تقم شرائع الدين ولم تنفذ أحكامه، فوجود الخليفة ضروري لوجود الدين واستمراره، فيقول الوليد بن يزيد في كتاب العهد لأبنيه الحكم وعثمان: "ثمّ استخلف خلفاءه على منهاج نبوته، حين قبض نبيه (ص) وختم به وحيه لإنفاذ حكمه، وإقامة سنته وحدوده، والأخذ بفرائضه وحقوقه، تأييدا بهم للإسلام، ودفعا بهم عن حريمه وعدلا بهم بين عباده وإصلاحا بهم لبلاده(٢٩)، فإنه تبارك وتعالى يقول:"ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين"(٣٠). وقال جرير يمدح عبد الملك بن مروان(٣١):

لولا الخليفة والقرآن يقرأه　　ما قام للناس أحكام ولا جمع

ونتيجة لهذه المكانة التي إدّعاها الأمويون لأنفسهم، فقد أعلنوا أنّ كل خروج أو ثورة عليهم هو خروج على طاعة الله وعلى الإسلام، وبالتالي فإنّ هذا الخروج يعدّ كفرا بالإسلام، فعندما اجتمع حسّان بن مالك بن بحدل بأنصار بني

أميّة في الأردن خاطبهم قائلاً: "يا أهل الأردن ما شهادتكم على ابن الزبير، وعلى قتلى أهل الحرّة؟ قالوا: نشهد أنّ ابن الزبير منافق وأنّ قتلى أهل الحرّة في النار، قال: شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرّة؟ قالوا: نشهد أنّ يزيد على الحقّ، وأنّ قتلانا بالجنّة"(٣٢).

وعندما خرج عمرو بن سعيد الأشدق على عبد الملك بن مروان، خطب في أهل دمشق فقال: "أيها الناس أنه لم يقم أحد من قريش قبلي على هذا! إلا زعم أنّ له جنّة ونارا! يدخل الجنّة من أطاعه والنار لمن عصاه، وإنّي أخبركم أنّ الجنة والنّار بيد الله، وأنّه ليس من ذي شيء، غير أنّ لكم عليّ حسن المواساة والعطية"(٣٣).

ولمّا حاول الخلفاء الأمويون إعطاء أنفسهم مكانة دينية رفيعة ومنزلة مرموقة في نظر الناس من خلال القول بأنّ الله سبحانه وتعالى اختارهم للخلافة، فقد تلقبوا بألقاب جديدة تدلّ على هذه المكانة، وأول هذه الألقاب هو لقب خليفة الله، فروى عن معاوية قوله: "الأرض لله وأنا خليفة الله"(٣٤).

واعتمد الأمويون لتبرير استخدامهم لهذا اللقب على بعض الآيات القرآنية التي تدعم رأيهم ظاهريا(٣٥)، ومنها قوله تعالى: ﴿ يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ﴾(٣٦).

وقد أطلق الشعراء على الخلفاء الأمويين، ألقابا مختلفة، لقب أمين الله، فقال الفرزدق يمدح الخليفة هشام بن عبد الملك(٣٧):

هشام أمين الله في الأرض والذي به تمنع الأيام ذات المحارم

ومن الألقاب الأخرى، لقب الإمام، فقال جرير يمدح الوليد بن عبد الملك(٣٨):

إنّ الوليد هو الإمام المصطفى بالنصر هزّ لواؤه والمغنم

ومن الألقاب الأخرى لقب خليل الله، فقال الفرزدق يمدح هشام بن عبد الملك(٣٩):

ونحن قيام حيث كانت وطـاءة   لرجل خليل الله من غير محتد

ومن هذه الألقاب لقب راعي، فقال الفرزدق يمدح الوليد بن عبد الملك(٤٠):

وإنك راعي الله في الأرض تنتهي   إليك نواصي كل أمر وآخـره

ولقب الخلفاء الأمويون بلقب آخر هو المهدي، وقد أطلق الشعراء هذا اللقب على الخلفاء الأمويين المتأخرين منهم خاصة. فقال الفرزدق يمدح سليمان بن عبد الملك(٤١):

كم كان من قس يخبرنــا   بخلافة المهدي أو جبـــر

وتسمّى الخلفاء الأمويون بلقب المهدي ردّاً على الفرقَ الشيعية التي تبنت فكرة المهدي ودعت إليها، وكان الإيمان بهذه الفكرة يعني عدم الرضا بالخلافة الأموية وانتظارخروج المهدي للاشتراك معه في الثورة على الأمويين والقضاء على دولتهم بإقامة دولة الحقّ والعدل، كما أنّ الإيمان بهذه الفكرة يعطي معتنقيها الأمل بتغيير الحكم الأموي، فحارب الأمويون هذه الفكرة بالإدّعاء بأنّ الخليفة القائم هو المهدي، وأنه لا مهدي غيره، وهم بذلك يدفعون المؤمنين بهذه الفكرة إلى اليأس والقنوط؛ لأنه لا أمل لهم في ظهور المهدي، فتفتر قوتهم ويضعف حماسهم ويمتنعون عن معارضة الأمويين.

وتوصّل بعض الباحثين إلى أنّ إطلاق لقب المهدي على الخلفاء الراشدين والأمويين كان بمعنى الخلفاء الذين يهدون إلى الخير والرشد(٤٢).

وتبنى الأمويون الجبر لدفع الناس لطاعتهم، والاستسلام لحكمهم، ومنعهم من التفكير بالثورة عليهم، ومحاولة تغيير حكمهم؛ لأنّ أي ثورة يقومون بها محكوم عليها بالفشل؛ لأنها تتعارض مع إرادة الله التي قررت اختيارهم للخلافة، فيقول جرير مادحاً عبد الملك بن مروان(٤٣):

الله طوقك الخلافة والهدى   والله ليس لما قضى تبديـل.

وقد عبّر الوليد بن يزيد عن هدف الأمويين من القول بالجبر، فقال: "فتتابع خلفاء الله على ما أورثهم الله عليه من أمر أنبيائه واستخلفهم عليه منه، لا

يتعرض لحقهم أحد إلا صرعه الله ولا يفارق جماعتهم أحد إلا أهلكه الله ولا يستخف بولايتهم ويتهم قضاء الله فيهم أحد إلا أمكنهم الله منه وسلطهم عليه، وجعله نكالا وموعظة لغيره، وكذلك صنع الله بمن فارق الطاعة التي أمر بلزومها والأخذ بها والأثرة لها، والتي قامت السماوات والأرض بها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثمّ استوى إلى السماء وهو دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾[٤٤]، فبالخلافة أبقى الله من أبقى في الأرض من عبادة وصيره وبطاعة من ولاة إياها سعد من ألهمها ونصرها... والطاعة رأس هذا الأمر وذروة وسنامه وملاكه وزمامه... فالزموا طاعة الله فيما عراكم ونالكم ولمّ بكم من الأمور...)[٤٥].

ولدفع الرعية لمزيد من اليأس والقنوط وجعلهم يفقدون الأمل في تغيّر الحكم الأموي، إدّعى الأمويون أنّ الخلافة باقية فيهم إلى يوم القيامة، فقال الفرزدق[٤٦]:

فلن تزال لكم والله أثبتها فيكم إلى نفخة الرحمن في الصور

ومن الأسس الأخرى التي اعتمد عليها الأمويون في إدّعائهم أحقيتهم بالخلافة، القول بأنهم ورثة الخليفة عثمان، وأنهم جاءوا للانتقام من قتلته، فمعاوية بن أبي سفيان رفض بيعة الخليفة علي وحاربه في صفين معتمداً على أنه قريب الخليفة عثمان ويحقّ له المطالبة بالثأر له من قتلته، واستطاع معاوية إقناع أهل الشام بجديّة مطلبه هذا، ولكن معاوية استغل هذا الطلب للوصول للخلافة، فبعد أن أصبح خليفة لم يتتبع أحداً من المتهمين بقتل عثمان، وقال بعد أن بويع بالخلافة عام ٤١هـ: "ألا وأني قد طلبت بدم عثمان قتل الله قاتليه ورد الأمر إلى أهله، على رغم معاطس أقوام"[٤٧].

ولم يتبع المروانيون سياسة معاوية المتسامحة مع المتهمين بقتل عثمان، بل قاموا بقتل بعضهم، فعندما وصل الحجاج بن يوسف إلى الكوفة واليا عليها قتل كميل بن زياد النخعي، وعمير بن ضابيء البرجمي، وهما ممّن اتهم بقتل الخليفة عثمان"[٤٨].

وقتل مروان بن الحكم، الأكدر بن همّام بن عامر بن صعب، سيد قبيلة لخم في مصر، وكان ممّن سار إلى الخليفة عثمان(٤٩).

وعمل الشعراء على نشر هذا الإدّعاء الأموي بين الناس، فقال الفرزدق يمدح عبدالملك بن مروان وواليه الحجاج بن يوسف(٥٠):

هو السّيف الذي نصر ابن أروى ... به مروان عثمان المصابا
إذا ذكرت عيونهم ابن أروى ... ويوم الدّار أسهلت انسكابا

وادّعى الأمويون أنهم أحقّ بالخلافة لأنهم ورثة الرسول (ص) محتجّين بقرابتهم من الرسول (ص)، فروى عن معاوية في أثناء البيعة ليزيد، مخاطبا المعارضين لبيعة يزيد من أهل المدينة: "وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف، لأنهم أهل رسول الله (ص)، فلما مضى رسول الله (ص) ولي الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة غير أنهما سارا بسيرة جميلة ثمّ رجع الملك إلى بني عبد مناف فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة"(٥١). وعندما تولى العباسيون الحكم دخل على أبي العبّاس مشيخة من أهل الشام فقالوا: "والله ما علمنا أنّ لرسول الله (ص) قرابة يرثونه إلا بني أمية حتى وليتم""(٥٢).

يؤيّد هذا الإدّعاء الأموي ما ورد في أشعار الشعراء، فيقول الفرزدق ليزيد بن عبدالملك(٥٣):

ورثتم خليل الله كل خزانة ... وكل كتاب بالنبوة قائم

ويقول الفرزدق أيضا لمعاوية بن هشام بن عبد الملك(٥٤):

ورثوا تراث محمد كانوا به ... أولى وكان لهم من الأقسام

ولمّا ادّعى الأمويون أنّ الخلافة لا تصلح إلا لهم، أوجدوا نظرية معدن الملك والخلافة، وهدفوا من ذلك إلى تدعيم سيطرتهم وخلافتهم، وأول ما تظهر هذه النظرية عند معاوية(٥٥):

وفي مؤتمر الجابية عام ٦٥هـ، دار نقاش بين عبد الله بن عضاه الأشعري وحسان ابن مالك بن بحدل، فقال ابن عضاه: "أراك تريد هذا الأمر لخالد بن زيد وهو حدث السن، فقال له حسان: "إنه معدن الخلافة ومقرّ الرياسة والسياسة"[٥٦].

وادعى الأمويون أنهم يستحقون الخلافة لما يتمتعون به من صفات تؤهلهم لتولي الخلافة، وهي صفات كان من الضروري توفرها فيمن يتولى الزعامة عند العرب قبل الإسلام، ومن هذه الصفات، الكرم والحلم والشجاعة والسن المناسبة والعدل والحكمة والمكانة الرفيعة في القبيلة. فبني أميّة هم أصل قريش وسادتها قبل الإسلام وبعده، وهم سادة العرب جميعا[٥٧].

وهكذا فإنّ الأمويين نظروا إلى أنّ الخلافة جاءتهم من الله سبحانه وتعالى، ولم تصل إليهم عن طريق بيعة الناس لهم، وهذه النظرة تشبه ما يُعرف بنظرية الحق الآلهي المقدس في الحكم، والتي سادت عند بعض الشعوب القديمة مثل الفراعنة والبيزنطيين والفرس وحتى عند دول اليمن في جنوب الجزيرة العربية[٥٨].

وهذا يعني أنّ سلطة الخليفة مستمدّة من الله، لذلك يجب على الرعيّة طاعته والانقياد له؛ لأنّ أوامره ونواهيه هي بمثابة قانون سماوي، ومن هذا المنطلق لقب الخلفاء الأمويون بألقاب تدلّ على هذه المكانة العظيمة التي تمتعوا بها مثل خليفة الله، راعي الله، ظلّ الله، خليل الله وهذا يعني أيضا أنه ليس من حقّ الرعيّة محاسبة الخليفة على أعماله وأفعاله؛ لأنّ الخليفة لم يصل إلى الحكم ببيعة الناس له، وأنّ الله سبحانه وتعالى قرّر هذه الأعمال. وهدف الأمويين من ذلك إقناع الرعية بالانصياع للحكم الأموي، وإقناعهم بعدم اللجوء للثورة لتغيير خلافتهم؛ لأنه لا جدوى من وراء هذه الثورات؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى هو القادر على إبعاد الأمويين عن الخلافة وليست الأمّة.

وهذا يناقض ما كان معروفاً عند الخلفاء الراشدين، الذين كانوا يرون أنّ الأمة هي التي تملك الحقّ في تعيين الخلفاء وعزلهم وقتما شاءت إذا خالف

الخلفاء التعاليم الإسلامية، فأبو بكر يطلب من الرعية في أول خطبة مراقبة أعماله، وتصحيحها إذا أخطأ(٥٩).

وفي سبيل إقناع الناس بصحة الإدعاء الأموي، بأحقيتهم بالخلافة، فقد نسب الأمويون إلى أنفسهم صفات كانت مرموقة في نظر العرب، منها أنهم سادة العرب عامة وقريش خاصة، وأنهم أكرم الناس وأكثرهم عطاء وأكثرهم قدرة على قتال الأعداء، ونتيجة لذلك فإنّ الخلافة لا تصلح إلا للأمويين، فهم معدن الملك والرياسة، وأنّ أي شخص يحاول الوصول إلى الخلافة سوف تبوء محاولته بالفشل؛ لأنّ الخلافة باقية فيهم إلى يوم القيامة فيقول مسلمة بن عبد الملك بعد ثورة يزيد بن المهلب: "أترى هؤلاء القوم قد خرجوا علينا كانوا يظنون أنّ الخلافة فيهم لئن كانوا ظنوا ذلك فقد ظنوا إفكا وزورا"(٦٠).

وقد استخدم الأمويون وسائل مختلفة لتحقيق جوهر هذه السياسة وإقناع الناس بقبول خلافتهم منها، حسن اختيار الرجال والأعوان الموثوق بولائهم وخبرتهم الإدارية، مع حكمتهم ودهائهم(٦١)، وكان المال هو أهم هذه الوسائل، إذ استخدم المال في تأكيد ولاء الأعوان، وتأليف قلوب منافسي بني أمية على الخلافة، من القريشيين، وبخاصة بنو هاشم، وغيرهم من رجال القبائل. وقد اعتبر معاوية لذلك من أجواد العرب؛ لأنه استمال القلوب بالبذل والعطاء، وجاد بالمال على المداراة، وكان إذا بلغه عن رجل ما يكره أسكته بالمال. فرضي عنه معظم الناس، وفي مقدمتهم بنو هاشم والزبيريون وغيرهم. وقدمت الأموال من قبل الأمويين لإقناع المعارضين بالبيعة لهم(٦٢).

وأعطى بعض خلفاء بني أمية الأموال لبعض الفقهاء لإقناعهم بتأييد الأمويين(٦٣)، واستخدم الأمويون الشعراء وسيلة إعلامية للإشادة بهم وبخلافتهم، وجعل الناس يميلون إليهم، فأمسكوا بفحول الشعراء في عصرهم فلقنوهم ما يجب عليهم قوله من الشعر السياسي، فانطلق هؤلاء الشعراء يدافعون عن الأمويين

وأحقيتهم بالخلافة، مظهرين الصفات التي تؤهل الأمويين للخلافة دون غيرهم، ولذلك كان الشعر هو المرآة التي انعكست عليها نظرة الأمويين للخلافة[٦٤].

عمل الأمويون على تفسير الأحاديث النبويّة لتخدم أغراضهم السياسية، في نفس الوقت وضع أتباعهم الأحاديث التي تدافع عن أحقيتهم بالخلافة، فظهرت الأحاديث التي تدافع عن الخليفة عثمان، وتظهر أنّ الأمويين كانوا محقين في قتل قتلته، ولا شكّ أيضا أنّ الأمويين استفادوا من الأحاديث التي تدعم رأيهم في الجبر، واستفادوا من الأحاديث التي تدعو المسلمين لطاعة أولي الأمر وعدم الخروج عليهم[٦٥].

وعمل الأمويون على التقرب من القبائل وخاصة القبائل الشامية، بإغراء زعمائها بالأموال وزيادة عطائهم واستشارتهم في الأمور المختلفة التي تهمّ الدولة، وعملوا على الأصهار إلى الأسر القوية في هذه القبائل العربية، من أجل إقناع هذه القبائل بالوقوف إلى جانبهم ودعم دولتهم[٦٦].

ويظهر لنا من كل ما تقدّم من الأخبار والأشعار أنّ الأمويين تذرّعوا بمقتل عثمان إلى طلب الخلافة والظفر بها، فأظهروا أنه قتل بغير حقّ، وأنّهم ثائرون به، منكرون لقتله، مصرّون على الأخذ بثأره؛ لأنّهم أقرباؤه وأولياء دمه. وقاد معاوية صفوفهم، ونازع عليا في الخلافة، وغالبه عليها، فلمّا اغتيل علي حصل معاوية على الخلافة واستبدّ بها.

وأشاع الأمويون بعد ذلك أنّهم أصحاب الخلافة وأربابها، وأولى الناس بها وأنّ لهم حقّا مشروعا فيها، فإنّها جاءت عثمان عن مشورة وبيعة، وهم أحقّ بوراثته؛ لأنّهم عصبته وأهل بيته، ولم يزالوا يرددون ذلك ويحتجّون به لحقهم في الخلافة إلى وقت متأخر من دولتهم.

ولكنهم تبيّنوا في زمن مبكر، بل في الشطر الأول من عهد معاوية أنّ حجتهم في الطلب بدم عثمان إنّما تخول لهم الاقتصاص من قتلته، ولا تنقل إليهم الخلافة عنه، ووجدوا أنّ ما ذكروه في أنّهم ورثوا الخلافة عنه لا يكون لهم أحقيّة

واضحة في الخلافة تقوم على أسس تلقى بعض القبول وتقوى على الصمود أمام نظريات الفرق الأخرى في الخلافة، فجنحوا إلى مذهب الجبر في الخلافة واعتمدوا عليه لإثبات حقهم فيها، واستندوا إليه لتسويغ سيطرتهم عليها، فأذاعوا أنّ الله قلدهم الخلافة وأعطاهم الملك وأنهم يسوسون بقضائه وقدره ويعملون بإذنه وأمره، وأضفوا على خلافتهم مسحة من الجلالة، وخلعوا على شخصياتهم ألوانا من الألقاب الدينية.

وقد أعلنوا أنّ الله حباهم الخلافة لأنهم نخبة العرب نسبا وخلقا، وصفوة المسلمين ورعا وتقى.

الهوامش:

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، الجزء الرابع، القسم الأول، تحقيق إحسان عباس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٧٩، ج٤، ق١، ص١٧؛ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ج٥، ص٣٣٦.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٣٦٢.

(٣) ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله، تاريخ دمشق، دار البشير، عمان، ١٩٨٢، ج٨، ص٣١٢.

(٤) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣، ج٤، ص٤١.

(٥) البلاذري، أنساب، ج٤، ق١، ص١٧-١٨.

(٦) القاضي عبد الجبار، عبد الجبار بن محمد بن عبد الجبار، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد السيد، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٤، ص١٤٣-١٤٤.

(٧) الإمامة والسياسة، المنسوب لابن قتيبة، تحقيق محمد طه الزيني، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج٤، ص١٦١-١٦٢؛ الحصري القيرواني، أبي إسحاق إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق علي محمد البجاوي، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ج٢، ص٦٤٥.

(٨) الطبري، تاريخ، ج٥، ص٥٣٦-٥٣٧.

(٩) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢، ص٢١-٢٢.

(١٠) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٢١٢-٢١٤.

(١١) البلاذري، أحمد بن جابر، أنساب الأشراف، تحقيق جوتين، الجامعة العبرية، القدس، ١٩٣٦، ج٥، ص٦٦-٦٧؛ الطبري، تاريخ، ج٤، ص٣٧١.

(١٢) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، مكتبة الرسالة، بيروت، ١٩٦٤، ج٨، ص١٣٦.

(١٣) سورة الإنسان، آية ٣، انظر تفسير هذه الآية في ابن كثير، تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٤، ص٤٥٧-٤٥٨.

(١٤) سورة البقرة، آية ٦، ٧، انظر تفسير هذه الآية: ابن كثير، تفسير، ج١، ص٤٥-٤٦.

(١٥) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج٤، ص٢٢٥.

(١٦) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، المطبعة البهية، القاهرة، ١٩٣٧، ص٨٤؛ مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨، ج٤، ص٢٠٤٢.

(١٧) البخاري، صحيح، ج٢٣، ص١٧٢؛ أبي داود، سنن، ج٤، ص٢٢٨؛ مسلم، صحيح، ج٤، ص٢٠٣٨.

(١٨) أبو داود، سنن، ج٤، ص٢٢٤؛ مسلم، صحيح، ج١، ص٢١٥٧؛ ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٥، ج١، ص٣٢-٣٥.

(١٩) انظر: جرير، ديوان جرير، ص٣٤-٣٦، ٣٥٧، ٤١٥، ٤٧٤؛ الفرزدق، ديوان، ج٢، ص١٤٥-١٤٧؛ الأصفهاني، الأغاني، ج١٢، ص٤٠٨٩-٤٠٩٣.

(٢٠) البلاذري، أنساب، ج٤، ق٢/ ص٥.

(٢١) جرير، ابن عطية الخطفي، شرح ديوان جرير، جمع وشرح محمد إسماعيل الصاوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ١٩٧٢، ص٧٤.
(٢٢) الفرزدق، همام بن غالب، ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩، ج٢، ص١٤٥-١٤٨.
(٢٣) جرير، الديوان، ص٤١٥؛ ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤، ص٣٠٠.
(٢٤) جرير، الديوان، ص٤١٥؛ ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٢٠٠؛ الحريري، أبو الفرج معافى بن زكريا، الجليس الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق محمد الخولي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨١، ج١، ص٢٥٦.
(٢٥) جرير، الديوان، ص٢٥٢-٢٥٧.
(٢٦) الفرزدق، الديوان، ج٢، ص٢١٣-٢١٦.
(٢٧) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠١-٣٠٢.
(٢٨) النابغة الشيباني، عبد الله بن مخارق، ديوان نابغة بني شيبان، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص٦٨-٦٩.
(٢٩) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٢١٩-٢٢٠.
(٣٠) سورة البقرة، آية ٢٥١.
(٣١) جرير، الديوان، ص٣٥٤.
(٣٢) الطبري، تاريخ، ج٥، ص٥٣١-٥٣٢؛ البلاذري، أنساب، ج٥، ص١٣٢؛ ابن كثير، البداية، ج٨، ص٢٤٠.
(٣٣) الطبري، تاريخ، ج٦، ص١٤٠-١٤١؛ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، وضع فهارسه أسعد داغر، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥، ج٣، ص٦٥-٦٦.
(٣٤) البلاذري، أنساب، ج١، ق٤، ص١١٦؛ المسعودي، مروج، ج٣، ص٤٣.
(٣٥) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٢١٧.
(٣٦) سورة ص، آية ٢٦، انظر تفسير الآية في ابن كثير، التفسير، ج١، ص٣٢.
(٣٧) الفرزدق، الديوان، ج٢، ص٣٠١-٣٠٢.
(٣٨) جرير، الديوان، ص٤٩٢.
(٣٩) الفرزدق، الديوان، ج١، ص١٤٠-١٤١.
(٤٠) المصدر نفسه، ج١، ص٢٤٨-٢٥١.
(٤١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٢ و ٢٦٤؛ وجرير، الديوان، ص١٤٦-١٥١.
(٤٢) الدوري، عبد العزيز، الفكرة المهدية بين الدعوة العباسية والعصر العباسي الأول، طبع الجامعة الأمريكية في بيروت، ١٩٨١، ص١٢٤-١٢٥؛ وانظر القاضي، وداد، الكيسانية في الأدب والتاريخ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٤، ص١٢٣؛ وعطوان، حسين، الأمويون والخلافة، دار الجيل، عمان، ١٩٨٦، ص٢١-٢٢.
(٤٣) جرير، ديوان، ص٤٩٢.
(٤٤) سورة فصلت، آية ١١.
(٤٥) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٢١٩.
(٤٦) الفرزدق، الديوان، ج١، ص٢١٤.
(٤٧) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٤، ج٣، ص٤٦-٤٧.

(٤٨) البلاذري، أحمد، أنساب الأشراف (مخطوط)، نسخة استانبول، المكتبة السليمانية رقم ٥٩٨، ق٢، ص٤؛ وانظر الطبري، تاريخ، ج٦، ص٢٠٧؛ ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، دار بيروت ودار صادر، بيروت، ١٩٧٥، ج٦، ص١٧٩.
(٤٩) الكندي، محمد بن يوسف، ولاة مصر، تحقيق حسين نصار، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩، ص٦٧.
(٥٠) الفرزدق، الديوان، ج١، ص٢٣-٢٦.
(٥١) ابن قتيبة، الإمامة، ج١، ص١٥٠.
(٥٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٣، ص١٥٩؛ والمسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٤٣.
(٥٣) الفرزدق، الديوان، ج٢، ص٢٨٢.
(٥٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٣.
(٥٥) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١، ص١٥٠.
(٥٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥، ص١٢٧-١٢٩.
(٥٧) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ج١، ص٤٩٤.
(٥٨) الدوري، عبد العزيز، النظم الإسلامية، مطبعة بغداد، ١٩٥٠، ص١١-١٣.
(٥٩) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٢٢٣، ٢٢٤؛ وانظر الزبير بن بكار، ١٩٧٢، الأخبار الموفقيات، تحقيق سامي مكي العاني، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٢، ص٥٧٩.
(٦٠) ابن أعثم الكوفي، أبي محمد، الفتوح، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٩٦٨، ج٨، ص٢١.
(٦١) انظر: البلاذري، أنساب، ج٤، ق١، ص٩١-١١٠؛ الطبري، تاريخ، ج٥، ص٢٢٧.
(٦٢) انظر: البلاذري، أنساب، ج٤، ق١، ص٤٣-٦٩؛ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج٢، ص٢٣٩؛ المسعودي مروج، ج٣، ص٤٥.
(٦٣) انظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٧٣؛ البسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان، كتاب المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٤، ج١، ص٣٨٤؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق (الزهري)، ص١٦٤؛ تهذيب تاريخ دمشق، ج٥، ص٣١٧.
(٦٤) انظر: البلاذري، أنساب، ج٤، ق١، ص٤٠؛ الطبري، ج٥، ص٣٣٦؛ شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩، ص١٠٤-١٠٥؛ صلاح الدين الهادي، اتجاهات الشعر في العصر الأموي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٢٩-١٣٠.
(٦٥) ابن أبي الحديد، شرح، ج٤، ص٦٤، ج١١، ص٤٦؛ ابن كثير، ج١١، ص١٨٣؛ سعيد الأفغاني، معاوية في الأساطير، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الدار المتحدة للنشر، عمان، ١٩٧٤، ص٤٥.
(٦٦) البلاذري، أنساب، ج٤، ق١، ص٤٣، ٦٩، ١٤٩؛ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٢٣٨؛ المسعودي، مروج، ج٣، ص٤٥؛ الطبري، تاريخ، ج٥، ص٣٢٩.